

الفصل الثاني

عقيدة الجهاد

الاسلام دعوة عالمية :

قلنا ان مجتمع الالهة كان يتجسد بطبقة الالسياد قادة المجتمع العبودي . وكان المسلمون الأولون يدركون هذا الأمر ويأخذونه على هذا المآخذ , فعندما كتب معاوية بن أبي سفيان مثلاً إلى الصحابي قيس بن سعد بن عبادة الخزرجي ، وكان يتولى مصر لعلي بن أبي طالب ، كتاباً يقول فيه : « أما بعد ، فانك يهودي ابن يهودي ، ان ظفرا حب الفريقين إليك عزلك واستبدل بك ، وان ظفرا ابغضها إليك قتلك ونكل بك الخ . . » . نقول عندما كتب معاوية هذا الكتاب ، أجابه قيس بن سعد بكتاب يقول فيه : « فانما أنت وثن ابن وثن ، دخلت في الاسلام كرهاً وخرجت منه طوعاً . لم يقدم ايمانك ، ولم يحدث نفاقك الخ . . » * . ويتجلى اقتران الوثنية بقيادة المجتمع العبودي في ان المستجيبين الأوائل لدعوات التوحيد كانوا دوماً في غالبيتهم من المستضعفين المضطهدين في المجتمع . بل ان من علامات النبوات الصادقة في نظر الناس في تلك الأيام ان يكون المستجيبون الأولون من تلك الفئة المذكورة من الناس . وقصة حديث أبي سفيان بن حرب إلى قيصر ملك الروم عندما سأله هذا الأخير عن خبر رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم تبين هذا الأمر بوضوح . تقول الرواية أن القيصر قال لابي سفيان في الحديث المذكور : « وسألتك اشراف

* الجاحظ . البيان والتبيين . الجزء الثاني ص ٧٦ .

الناس يتبعونه أم ضعفاءؤ هم فقلت ضعفاءؤ هم ، وكذلك اتباع الرسل . . . * * * .
وليس هذا فحسب ، فالدعوة الاسلامية من أيامها الأولى بشرت بعهد عالمي جديد
عندما نادى بالتوحيد ، كما تدل عليه الواقعة التالية الثابتة بالتواتر : « قالت قريش
للنبي عليه الصلاة والسلام ، اتباعك من هؤلاء الموالي ، كبلال وعمار وصهيب ،
خير من قصي بن كلاب وعبد مناف وهاشم وعبد شمس ؟ فقال : نعم ، والله لئن
كانوا قليلاً ليكثرن ، ولئن كانوا ضعفاء ليشرفن حتى يصيروا نجوماً يهتدى بهم
ويقتدى فيقال : هذا قول فلان وذكر فلان فلا تفاخروني بأبائكم الذين موتوا فيها ،
فاتبعوني أجعلكم انساباً ، والذي نفسي بيده لتقتسمن كنوز كسرى وقيصر » * * .
ف نجد إذن أن معنى هدم الوثنية وإقامة التوحيد في عقيدة الاسلام هو :

- تغير النظام الاجتماعي إلى نظام لا يكون فيه الاحترام الا للمجاهد في
سبيل انتصار الفكر الجديد ، فيكون بجهاده (بعمله) قدوة ونجماً هادياً بغض النظر
عن أصله ونسبه .

- انتشار النظام الجديد ليصبح عالمياً يهدم النظامين العبوديين ، نظامي
القيصرية والأكاسرة .

أي أن محاربة الوثنية وهدمها تعني إذن في العقيدة الاسلامية محاربة النظام
العبودي العالمي وهدمه . والواقعة التالية تؤكد أيضاً هذا الأمر . فبعد صلح الحديبية
كتب صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء في منطقة البحر الأبيض المتوسط ،
لاسيما منهم امبراطوري فارس والقسطنطينية ، كتباً يدعوهم فيها إلى الدخول في
الاسلام ، وكان ذلك في أواخر السنة ست هجرية . « وقد اتخذ إذ ذاك خاتماً من فضة
كان يختم به خطاباته ، وكان نقشه (محمد رسول الله) * * . وهذا التاريخ لدعوة
الناس إلى الاسلام (في الجزيرة وخارجها) هام جداً لتبين أهداف هذه الدعوة . إذ
من البديهي أن يبدأ الرسول بدعوة الاقربين من قومه ، فسيغرق هذا الأمر كل أوقاته
ويتطلب كل جهوده وجهود اتباعه الأوائل لارساء قاعدته المادية والروحية . أما في

* * نور اليقين للخضري ص ٢١٩ .

* انظر رسالة ابن القارح لأبي العلاء المعري في رسالة الغفران .

* نور اليقين للخضري ص ٢١٨ .

حالة انتصار الدعوة في قوم الرسول ، وتمام استجابة الناس لها في جميع أرجاء وطنه ، كتوطد الاسلام مثلاً في الجزيرة العربية ، فان توجيهها بعد هذا إلى الأقاليم الأخرى قد يفسر بانه مقدمة لتحقيق توسع اعتيادي لدولة ناشئة ، كذلك الذي كان يحدث عادة في التاريخ الانساني ، وما كان له هدف ثوري عالمي يغير من العلاقات القائمة . أما الظرف بعد الحديبية مباشرة فهو لا يعطي أي أساس معقول للتفسير الأنف الذكر . فالدعوة الاسلامية وإن كانت قد حققت نصراً سياسياً كبيراً بحصولها على ما نسميه حالياً « الاعتراف » الواقعي من قريش ، إلا أنها ما كانت قد كسبت بعد استجابة الناس في كل الجزيرة العربية حينذاك . أي أنه ما كانت قد قامت دولة جديدة في ذلك الظرف تتناقض مصالحها مع مصالح الدول المجاورة وتنشأ فيها دوافع التوسع الاعتيادي الذي لا يغير شيئاً من العلاقات الأساسية في النظام العالمي السائد ، إلا الطموح إلى إقامة امبراطورية على غرار تلك التي سلفت أو التي كانت قائمة في ذلك الوقت . فلا بد إذن من أن تكون السلطة الاسلامية في أساسها وجوهرها سلطة ثورية تهدف إلى تغيير العلاقات الاجتماعية في العالم أجمع : أي نقل جملة المجتمعات الانسانية إلى الطور الأعلى ، طور « الحرفة الحرة والتجارة العالمية الكثيفة » المنظمة بقواعد تشكل وحدة متناسقة هي قواعد الاسلام وتختلف جذرياً عن تلك التي كانت متعارفاً عليها في العهد العبودي ، حيث كان التجار في كثير من الأحيان « لا يفرقون كثيراً في أعمالهم بين التجارة والغدر ، أو بينها وبين اللصوصية ، فكانوا يسرقون الضعيف ، وبيتزون مال الغني . . * ، وقد أتى القرآن بالمبادئ العامة للتعامل بين الناس ، وذلك بغض النظر عن دياناتهم ومعتقداتهم (وبعبارة أخرى لم يميز الاسلام بين المسلم وغير المسلم في التعامل) . وفيما يلي نعطي بعض الأمثلة على تلك المبادئ :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب إن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً فإن كان الذي عليه الحق

سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل
 واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل
 وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر
 إحداهما الأخرى ولا يَأْبُ الشهداء إذا ما دعوا ولا تسأموا ان
 تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم
 للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها
 بينكم فليس عليكم جناح الا تكتبوها واشهدوا إذا تبايعتم
 ولا يضار كاتب ولا شهيد وان تفعلوا فانه فسوق بكم واتقوا
 الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم . وإن كنتم على
 سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة فان امن بعضكم بعضاً
 فليؤد الذي أوتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة
 ومن يكتمها فانه آثم قلبه والله بما تعملون عليم ﴿

(البقرة ٢٨٢ ، ٢٨٣)

﴿ ويسل للمطففين . الذين إذا اكتالوا على الناس
 يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ .

(المطففين ١ ، ٢ ، ٣)

وعاب القرآن اليهود المرابين والمبطلين :
 ﴿ . . وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس
 بالباطل ﴾ .

كما عاب الاحبار والرهبان المبطلين :
 ﴿ يا أيها الذين آمنوا ان كثيراً من الاحبار والرهبان ليأكلون
 أموال الناس بالباطل . والذين يكنزون الذهب والفضة ولا
 ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾

(التوبة ٣٤)

وأمر المؤمنين بالآلا يأكلوا أموالهم فيما بينهم بالباطل :
 ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن

تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان
بكم رحيماً ﴿

(النساء ٢٩)

وحرم أخذ الربا بشكل مطلق من أي مصدر كان :
﴿ الذين يأكون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه
الشیطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل
الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما
سلف وأمره إلى الله ومن عاد فاولئك أصحاب النار هم فيها
خالدون . يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب
كل كفار أثيم ﴿

(البقرة ٢٧٥ ، ٢٧٦)

وقد قلنا أعلاه أن كفاح الاسلام ضد الوثنية هو كفاح عالمي لازالة الطور
العبودي بازالة معتقداته وعلاقاته الاجتماعية وهو لا يقتصر على جزيرة العرب فقط ،
وذلك بدلالة الآية المكية التالية :
﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر
الناس لا يعلمون ﴿

(سبا ٢٨)

وتقدم « كافة » في الآية على كلمة « الناس » كحال مقدم هوللتأكيد والاهتمام
حسب كتب التفسير ، لتأكيد عالمية الدعوة منذ بداياتها في مكة . ولم يتغير شيء من
هذا الأمر عند التطبيق العملي . فالعرب لم يتأخروا أبداً عن الخروج إلى العالم عند
استتباب أمر الاسلام في جزيرتهم . ثم أن الآيات القرآنية الخاصة بالمعاملات كالتي
وردت أعلاه (وان بدا نص بعضها وكأنها مخصصة للمؤمنين من المسلمين) شكلت
مبادئ التعامل في دار الاسلام بين كل الناس بغض النظر عن عقائدهم كما قلنا
اعلاه : « كان مما فرضه الله على نبيه ان من اسلم فقد احرز ماله ودمه وصار
للمسلمين أخوا لا يكلف إلا دفع الزكاة ، التي بها قوام الأمة ، ومن أبى الاسلام لا
يجبر عليه بل يرضى بحكم الاسلام ونظاماته في المعاملات ويدفع مقابل حمايته جزءاً
صغيراً حده الشرع ، وبذلك يكون في ذمة الله ورسوله ، له ما للمسلمين وعليه ما

عليهم . . . » * ومن كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنها نستخلص القاعدة التالية في معاملة غير المسلمين في دار الاسلام : « . . . فاذا أخذت منهم الجزية فلا شيء لك عليهم ولا سبيل . . . أمنع المسلمين من ظلمهم ، والاضرار بهم وأكل اموالهم الا بحلها . . . » . أما التعامل مع أجنبي دخل دار الاسلام فكان بطبيعة الحال كالتعامل مع أي مقيم في هذه الدار (مسلمًا كان أو غير مسلم) ، وذلك من حيث قواعد العدل والاخلاق في التعامل :

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين أن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بها فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وأن تلووا أو تعرضوا فان الله كان بها يعملون خيراً ﴾

(النساء ١٣٤)

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجر منكم شأن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خير بما تعملون ﴾ .

(المائدة ٩)

نكرر إذن ونقول ان الاسلام أعطى مبادئ عامة للتعامل بين الناس ، ليس فقط في رقعة محدودة من الأرض ، كالجزيرة العربية مثلاً ، ولا في قوم معين كالعرب فحسب ، بل بين الناس في العالم أجمع . وكانت هذه المبادئ الأسس التي قام عليها فقه المعاملات الذي ازدهر في العهد الاسلامي ازدهاراً لا مثيل له في استقصائه واتساعه وشموله وعمقه وضخامته ، لانه كان في واقع الأمر فقهاً للتعامل في دار الاسلام المتسعة الارحاء ، وفقها دولياً تخضع لقوانينه على العموم جميع المعاملات التجارية عبر تلك الدار ، التي كانت تشكل « العقد الوسيط » للعالم المعروف حينذاك . وهذا أمر لم يشاهد له مثيل في الطور العبودي ، فيكون هذا الطور قد انقلب بالاسلام إلى الطور الأعلى ، تكون الجملة الانسانية قد تقدمت ونمت بالاسلام إلى ما سميناه طور الحرفة الحرة والتجارة العالمية الكثيفة الموحدة بأسس المعاملات فيها .

ان من الطبيعي ان لا تتناول السيرة النبوية الا الوقائع المادية التي جرت في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم . إلا أن هذا يجب أن لا يقودنا إلى الظن بان نقيض الاسلام هو جاهلية العرب . فهذا القوم كان على العموم في حصيلة التقاء خواصه المادية والروحية والفكرية والاخلاقية أفضل من غيره من أقوام الطور العبودي ، وهذا عندما ينظر إلى المفاضلة بين الأقسام بمقياس حيويتها ، وليس بمقياس حياة الترف الفارغة والقصور المبنية على أسس من عظام المستضعفين . وقد شهد صلى الله عليه وسلم بالفضل لقومه إذ قال : « انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » . فاصنام وأوثان الجزيرة العربية ما كانت أساسياً هدف الدعوة الكبرى ، وانما كانت عائناً بين هذه الدعوة وبين هدفها الذي هو النظام العبودي العالمي فيجب لذلك البدء بازالتها ، تماماً كاصنام وأوثان عصرنا الحالي التي تحول بين أمتنا وبين طموحاتها بالخلاص من الطور الرأسمالي الاحتكاري العالمي ، واقامة دولتها العربية الاشتراكية الكبرى ، وبالتالي المساهمة مساهمة حاسمة في انهاء هذا الطور المخزي للاستعمار الحديث . وخير وصف للدور العالمي للاسلام هو ما قاله المغيرة بن شعبة لرستم قائد الجيش الفارسي في القادسية ، عندما أرسله سعد بن أبي وقاص إليه قبل المعركة ليدعوه باحدى ثلاث : الاسلام أو الجزية أو الحرب ، قال المغيرة : « قد كانت تبلغنا عنكم الاحلام ، ولا أرى قوماً أسفه منكم . إننا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محارباً لصاحبه . فظننت أنكم تواسون قومكم كما تواسى . وكان أحسن من الذي صنعتم ان تخبروني ان بعضكم أرباب بعض . وان هذا الأمر لا يستقيم فيكم . واني لم آتكم ولكنكم دعوتوني . اليوم علمت أنكم مغلوبون . وان ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ، ولا على هذه العقول » * . وقد روت كتب السيرة ان المستضعفين من الفرس صاحوا عندما سمعوا كلام المغيرة قائلين : صدق العربي * . . . كما علق على هذا الكلام الرهاقين (زعماء الفلاحين أو ما نسميهم اليوم باسم «الواقفين») بقولهم : « لقد رمى العربي بكلام لا تزال عبيدنا تنزع إليه * » .

ونقرأ في كتاب « الحضارة الاسلامية في عصرها الذهبي » لمؤلفيه دومنيك

* سيرة الخلفاء الراشدين للخضري ص ٦٦ .

وجانين سورديل العبارات التالية * * : « منذ السنوات الأولى للقرن السابع الميلادي أعلن في بلاد العرب ، في وسط منطقة الحجاز الصحراوية (في الواقع الجبلية . الا أن الصحراء تعبير يعطي صورة العدم والضياع في ذهن الاوربي : من عندنا) ويفهم رجل ملهم اسمه محمد ، عن ديانة جديدة مبنية على الخضوع التام لله ، الاسلام ، وطاعة رسوله . لم تؤثر هذه الدعوة في بادئ أمرها ، الا في عدد قليل من أبناء ذلك العصر في مدينة مكة التجارية وواحة يثرب الجبلية التي اصبحت فيما بعد المدينة ، أي مدينة النبي (وكانه صلى الله عليه وسلم كان يملك إذاعاً وتدوير نشر اصحاب مليارات هذا العصر ليستجيب له الكثيرون من اليوم الأول للدعوة !؟ . . . من عندنا) . ولم تبلغ هذه الدعوة عند وفاة محمد سنة ١١/٦٣٢ سوى بعض القبائل الهائمة في بطن البلاد (ان جزيرة العرب ما كانت مأهولة بقبائل « هائمة » بل بانسان جدير بحمل رسالة عالمية ، وقد دخل عرب الجزيرة كلهم الاسلام قبل وفاة النبي بحسب وقائع التاريخ ، وقد أتى ذكر هذا الامر بسورة النصر ، عندما دخلت الناس أفواجا في دين الله : من عندنا) . ونعود إلى كلمة المؤرخين سورديل الأنفي الذكر : « ولم تبلغ تلك الدعوة سوى بعض القبائل الهائمة والتي قبل بعض زعمائها الاعتراف بسلطة الدولة الجديدة ، دون أن يتخذ هذا التحالف السياسي صفة الدخول الرسمي في الاسلام ، إلا ان هذه النتائج التي تبدو للوهلة الأولى ضئيلة والتي ستنتشر قريباً إلى أبعد من هذا الاطار المحلي ، تفسر الانقلاب السياسي الذي سيؤدي بعد أقل من خمسين عاماً إلى تغيير ملامح جنوب غربي آسيا وحوض المتوسط بكامله تقريباً ، أي عندما تترامى حتى حاجز جبال البرينيه من جهة ، وسهول السند وما وراء النهر من جهة ثانية ، امبراطورية مولودة من الحاجة إلى بث الدين الجديد » .

« ان فجائية هذه الظاهرة ، والتباين الواضح بين البدايات المتواضعة (؟ . .) للجماعة الاسلامية وتنامي دولة فاتحة عظيمة ما فتتا يثيران دهشة المؤرخين ، مما تسبب باقتراح تفسيرات متخبطة مختلفة تختار في معظمها أن ترى في ذلك حالة خاصة من انهيار العالم القديم .

على أية حال ، فالعري التي تربط انجازات محمد المتواضعة بالتنظيم المعقد

للعالم الاسلامي اللاحق لا تخفى على ذي عينين . إذ أن هذا العالم قد التمس مبادئه التوجيهية في أدق حركات مؤسسه واخباره واحتفظ ، في قلب مناطق غنية أهلة بالحواضر ، بذكرى البلد المخصوص الذي أعلنت فيه رسالة محمد والذي انطلق منه صحابته إلى الاقطار المجاورة . وهذه البلاد ، بلاد العرب ، كانت تعيش حالة من الفوضى والاضطراب في القرن السابع لانزال نفتقر إلى معلومات كافية عنها (طبعاً ان مصادر المسلمين الموثقة لا تعجب كثيراً بعض المؤرخين الاوربيين ، مع انها كافية جداً لاعطاء صورة جلية واضحة للجزيرة العربية في عصر الرسالة . ثم ان الفوضى في الامبراطورية الفارسية وفي الامبراطورية البيزنطية العزيزة على قلوب الاوربيين مع أنهم لا يمتنون إليها باية صلة ، الا صلة تخريبها ، على عكسنا نحن الذين لنا أكبر الفضل في بنائها وبناء ثرواتها المادية والروحية ، نقول ان الفوضى في هاتين الامبراطوريتين كانت في ذلك العصر أوسع وأعمق بكثير من تلك التي كانت في الجزيرة العربية : من عندنا) .

هذا هو رأي مؤرخين كبيرين قدم لهما المؤرخ ريمون بلوخ فقال فيما قاله : « ثمة قليل من الكتب قادر على التقييد بمنهج تاريخي لا غبار عليه ، يرضي تطلعات العلماء وجمهور القراء المثقفين العريض . ان كتاب « الحضارة الاسلامية في عصرها الذهبي » هو من هذا القليل » . ونحن كعرب لا يسعنا سوى شكر كل من يبذل مجهوداً من العلماء الاجانب ليساهم في القاء الضوء على تاريخنا . الا أنه من المؤسف ان نجد كثيراً من العلماء الاوربيين لا يتمكنون بسبب جبلتهم التي تكونت في مجتمعات تقوم خلال قرون طويلة في ظروف التعصب الاستعماري الاعمى الموجه ضد الاقوام الاخرى ، وخاصة منها الاقوام الاسلامية ، نقول لا يتمكنون من تكوين صورة صحيحة لهذه الاقوام « على شبكيتهم » عندما ينظرون إليها ، تماماً كالمصابين بالبدالتونية الذين لا يبصرون أبداً اللون الأحمر مثلاً . فالصورة دوماً مشوشة عندما تبتعد عن أوروبا التي لها أيضاً في ابصارهم صورة « واضحة أكثر من اللزوم » . ومثال هذا نجد في العبارات الأنفة الذكر التي ينقض بعضها بعضاً . الا أن الذي يدعو إلى العجب هو وجود متخصص في التاريخ كالسيديين سورديل يعجز عن تقدير الصعوبات الهائلة التي تتعرض لها بدايات دعوة عالمية إلى ان تنتصر وتحقق قيام قاعدة كافية للانطلاق نحو تحقيق أهدافها العالمية ، كما حدث في الدعوة الاسلامية .

فالسيدان سوردييل لايريان فيما حققه نبينا محمد أكثر من « انجازات متواضعة »
و« بدايات متواضعة » لتنامي دولة عظمى . . . دولة عظمى لا يمكن إنكارها على
كل حال . . . ومن الواضح انه صلى الله عليه وسلم انجز القاعدة اللازمة لتغيير
العالم ودفعه للارتقاء إلى الطور الاعلى ، وهو انجاز معجز لا شبيه له حتى اليوم في
التاريخ الانساني .

علاقات الاسلام الداخلية والخارجية :

نقرأ في كتاب « الحرب والسلم » المار ذكره للدكتور مجيد خدوري * ما يلي :
« يلاحظ من تاريخ الانسان المدون أن أهل كل حضارة يميلون إلى تنمية مجموعة من
الكيانات السياسية بينهم أشبه شيء » باسرة من الدول تنظم العلاقات فيما بينها مجموعة
من العادات والأعراف . . . ومما يؤكد هذه الملاحظة تعايش عدة أسر من الدول في
مناطق أقليمية كالشرق الأدنى القديم واليونان والرومان والصين والعالم الاسلامي
والعالم المسيحي الغربي . . . ويقول البارون كورف : ان مجرد التجاور في المعيشة
يوجد التزامات أدبية وقانونية تتبلور بمرور الزمن لتصبح نظاماً من القانون
الدولي . . . أثار ظهور الاسلام برسائلته الموجهة إلى الناس كافة مشكلة للدولة
الاسلامية وهي : كيف تنظم علائقها مع البلدان غير الاسلامية وكذلك مع
الطوائف الدينية الأخرى المعترف بها داخل أراضيها . . . ويفترض قانون الدول
العصري وجود عائلة من الأمم مكونة من مجموعة الدول المتمتعة بحقوق السيادة
الكاملة والمساواة بالمنزلة . أما قانون الدول الاسلامي فلا يعترف بغير دولته إذ أن
غايته القصوى هي اخضاع العالم باسره لنظام واحد من القانون والدين . . .
وأساس قانون الدول الاسلامي ، كما كانت الحال مع القانون القديم لروما والعالم
المسيحي في العصر الوسيط هو دولة عالمية . وتفترض كل من الدولة المسيحية والدولة
الاسلامية بصفتها دولتين نومقراطيتين عالميتين * ان البشريؤ لفون اسرة واحدة تلتزم
بقانون واحد وتخضع في النهاية لحاكم واحد . . . » .

* ص ٦٥ وما يليها .

* نحت الدكتور خدوري كلمة نومقراطية من كلمتين يونانيتين : ناموس تعني الشريعة ،
كراسي تعني حكم ، فتكون التومقراطية تعني حكم الشريعة .

ان الكتاب الذي نأخذ منه هذه العبارة غني بالمراجع الاجنبية حول بحث موضوع الجهاد ، وقد سعى مؤلفه إلى الالتزام بالموضوعية فانصف الاسلام في كثير من المواضيع والمسائل المتعلقة بهذا البحث . الا ان العودة إلى بعض الاوربيين والاستعانة « بعقولهم » لفهم ديانتنا وتاريخنا يوقعنا في أخطاء فادحة ، لاسيما عندما يكون هؤلاء الاوربيون من الصهاينة والمستعمرين أو من الذين أخذوا العلم عنهم** . فوجهة نظر الشرع الاسلامي في هذه القضية أو تلك تؤخذ من منابعها : القرآن والحديث ، والعربي مؤهل لفهم هذه المنايع أكثر من أي عالم أو مستشرق أوربي أو أميركي . فالاسلام مثلاً لم يشرأبة مشكلة برسالته العالمية في مجال تنظيم علاقاته مع غير المسلمين ، كما جاء في العبارات اعلاه ، أكان غير المسلم من أقوام دار الاسلام أم من دولة أجنبية . وان ما يجب أن لا يغرب عن البال هو : ان الدعوة الاسلامية اتت كدعوة ثورية تدعو إلى نظام عالمي جديد ما كان بطبيعة الحال في مصلحة الطبقات السائدة في كل ذلك العالم القديم ، وانما كان في مصلحة سواد الناس فيه ، وخاصة منهم المستضعفين والمقهورين ، وفي مصلحة تقدم الانسان على الاخص . وهذا أمر لا ينكره أحد ، وقد عبر عنه بكل الاشكال الممكنة (حتى منها التي أتت من أعداء الاسلام الالقاء) ، نقول عبر عنه بالاشكال الآيلة جميعاً إلى أن الاسلام أتى بعهد جديد وحضارة باسقة تقوم على أسس ومفاهيم تختلف جذرياً عما كان معروفاً فيما سبقه من أزمان الطور العبودي . أي ان الاسلام كان يعادي ضلال ورجعية الطبقات السائدة في العالم حينذاك ، ولا يعادي الانسان كما هو عليه حال الامبرياليين طوال الطور الرأسمالي الذين ذهبوا دوماً ، لا لتحرير الانسان في الأرض من ظالميه ومن تخلفه كما فعل الاسلام ، وانما لقهر الانسان ونهب ثرواته أينما كان : لقد حمل الاسلام الأزدهار المادي والروحي إلى المتخلفين ، وانعش الذين كانوا ينحدرون نحو مستنقع الخمول والتخلف من المتقدمين ، فقلب سيرهم من الهبوط

** في الصفحة ٤٧ يميلنا الدكتور خدوري مثلاً إلى مرغليوث الشهير بانكار كل ما هو مشرق في أدينا وتاريخنا ، وذلك للاطلاع على مناقشة هذا الصهيوني للرسالة الشهيرة لعمر إلى أبي موسى الاشعري التي سترد فيما يلي . ومارغليوث هو المصدر الذي أخذ عنه الدكتور طه حسين عندما وضع بحثه في انكار الشعر الجاهلي .

إلى الصعود ، فقامت لذلك منائر المدينة في كل أرض حل فيها . أما الرأسايون الاوريون فلم يجلبوا معهم إلا القتل والدمار والتخلف إلى كل أرض حلوا فيها ، وقد تقدموا بما نهبوه من قيم وثروات من نكبوا باستعمارهم . ان التقدم المادي والروحي الذي حمله الاسلام إلى قوطي الاندلس واثراك وتر سمرقند يناقض تماماً تخلف وعذاب الهنود وتخلف وعذاب الافارقة الذي لم ينته بعد حتى يومنا هذا على أيدي الأوربيين العرقيين وبدعم حكومات أوربا وأميركا .

وقد التزمت الثورة الاسلامية بالقوانين الموضوعية للمجتمع في سيرها الظاهر لتغيير بنية العالم الفاسدة ، ولم يمنعها عداؤها للطبقات السائدة في الطور العبودي عن احترام العهد (اساس كل علاقة دولية أو فردية) مع غير المسلمين ، دولا كانوا أو جماعات أو أفراداً . والوفاء بالعهد فرض على المسلم نص عليه القرآن الكريم في مواضع ومناسبات عديدة نذكر منها « الدرس » التام التالي ، الذي أتى منذ الأيام الأولى للدعوة الاسلامية في مكة ، وهو درس مطلق لا يرتبط بمناسبة معينة ، وقد تأكد بأقوال وممارسات جميع من ساهم في الجهاد من أجل هذه الدعوة :

﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غزها من بعد قوة انكاثاً تتخذون ايمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة انما ييلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون . ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون . ولا تتخذوا ايمانكم دخلاً بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم . ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون . ما عندكم ينفذ وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا وأجرهم باحسن ما كانوا يعملون ﴾ .

(التعل من ٩١ - ٩٦)

فالإسلام منذ بداياته إذن قال بان الناس يختلفون فيكون منهم المهتدي ومنهم الضال حتى يوم القيامة حيث يحكم الله بينهم . وهذا يناقض تماماً ما جاء بقول الدكتور خدوري الأنف الذكريان الإسلام يطمح الى « إخضاع العالم لحاكم واحد . . » وانه « لا يعترف بغير دولته . . » . ان طموح الإسلام (الذي لم يفهمه الاوربيون المتعصبون ولن يفهموه ما بقيت فيهم نيات العدوان وقهر الانسان) هو دعوة الناس كافة إلى إزالة كل ما يعيق تقدم الانسانية نحو الاطوار العليا في نموجمة مجتمعاتهم . ففي كل انتقال من طور إلى آخر لابد من تجسيد الطور الاعلى بنظام لا يقوم إلا بإزالة عوائقه (دون إزالة الانسان طبعاً كما فعل الرأسماليون عندما بنوا طورهم) . ولابد من أن يبقى المتخلفون بعد ذلك : كان على الإسلام مثلاً أن يزيل النظام العبودي بإزالة عائقه الاساسيين : وثنية العرب وتفريقهم ، ونظامي امبراطوريتي الفرس والروم . وعند إقامة دار الإسلام ، كعقد وسيط للنظام العالمي ، بقيت أقوام كثيرة أخرى لم تدخبل في الإسلام ، في داره وخارج داره ، إلا أنها من الناحية العملية دخلت في الطور الأعلى الذي حققه الإسلام . وإن دعوة الناس كافة للدخول في الإسلام شيء وإكراههم شيء آخر نهي عنه القرآن ، بخلاف ما يقوله الدكتور خدوري بان الإسلام يهدف إلى « إخضاع العالم لنظام واحد من القانون والدين . . » :

﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾

(البقرة)

فالدعوة تتوخى اقبال الناس بمحض ارادتهم وايسانهم بقلوبهم وليس « خضوعهم » ، كما تقوم على تمني الخير لهم . ان الايمان هو التسليم عن احترام وحب عميقين ويختلف عن الخضوع والمذلة ، ولا يأتي أبداً بالارهاب والسيطرة . أما الخلود في العذاب لغير المؤمن فهو بسبب اتباعه نهج الطاغوت بارادته :

﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم . الله ولي الذين آمنوا يخرجهم

من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت
يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم
فيها خالدون ﴿

(البقرة ٢٥٦ و ٢٥٧)

﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت
تكفره الناس حتى يكونوا مؤمنين . وما كان لنفس أن تؤمن
إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾

(يونس ٩٩ و ١٠٠)

ومع ذلك فإن الناس احرار في أن يبقوا على معتقداتهم التي تخصهم ، ولكن
هذه الحرية لا تعني أبداً الوقوف حجر عثرة في طريق بناء الطور العالمي الجديد ، في
طريق الخلاص من القهر والتخلف ، في الوقت الذي يوفر لهم هذا الطور المجال
الواسع لممارسة شعائرتهم واستمرار عاداتهم وعلاقاتهم التي كانوا عليها من قبل .
ولنعط فيما يلي مثالا على هذا الأمر عهداً لأهل اذربيجان من عامل الخليفة ، مع العلم
أن العهود الأخرى المعطاة إلى غير المسلمين في دار الاسلام لا تختلف في شيء عن
هذا العهد من حيث المضمون : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عقبة بن
فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل اذربيجان سهلها وجبلها وحواشيها
وشعابها وأهل مللها كافة على الامان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم على
أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم ليس على صبي ولا امرأة ولا زمن ليس لديه شيء
من الدنيا ، ولا متعبد ولا متخلف ليس لديه من الدنيا شيء ، لهم ذلك ولن سكن
معهم . وعليهم قرى المسلم من جند المسلمين يوماً وليلة ودلالته ومن حشر منهم في
سنة وضع عنه جزاء تلك السنة ومن أقام فله مثل ما لمن أقام من ذلك ومن خرج فله
الامان حتى يلجأ إلى حرزه . كتب فلان وشهد فلان وفلان * » وهناك أيضاً عهد
عمر رضي الله عنه لأهل ايلياء (بيت المقدس) ، وهو لا يختلف في الجوهر عن هذا
العهد وإن كان فيه بعض التفصيل ، ويعد من أشهر الوثائق التاريخية * * .

* سيرة الخلفاء الراشدين للخضري ص ٩٠

** انظر المرجع السابق ص ١٠٢

ان محنتي الحريين العالميتين اللتين اندلعتا في النصف الأول من هذا القرن ، ثم تطوير الاسلحة الصاروخية النووية بشكل خاص ، امور جعلت من الحروب العالمية شيئاً يصعب تخيله . ولكن حروب العدوان الكلاسيكية وعلى الأخص منها التي تشنها في هذا العصر الامبريالية الاميركية ، بجيوشها أوبجيوش عملائها كاسرائيل وجنوب افريقيا واشباهها ، وكذلك التهديد بالعدوان والتآمر والتخريب والعمل على الاطاحة بالحكومات التي لا تخضع ، وتشكيل قوات يعلن رسمياً بأنها للتدخل ولاحتلال بلاد الغير « كقوة الانتشار السريع » الاميركية ، وادعاء حق التصرف بقيم وثروات الغير (كادعاء اميركا مثلاً بان لها مصلحة في بترول الخليج العربي تبدي على حق الشعب مالك هذه الثورة) ، واغتصاب الاوطان بعد تشريد أهلها (كما اغتصبت فلسطين وشرد أهلها واعطيت إلى خنز مرتزقة ادعياء ما عرفت سلالاتهم القديمة سوى تلوج ما وراء القوقاز وقزوين) ، كل هذه الأمور واشباهها هي البارزة في هذا العصر في العلاقات الدولية . ليس بالامكان ان ننظر إلى القانون الدولي وإلى المؤسسات الدولية بمعزل عن خواص المرحلة التي تمر بها جملة المجتمعات الانسانية في زمان هذه المؤسسات وتلك القوانين . وفي زماننا نجد ان هذه الجملة تنقسم إلى ثلاثة عوالم : عالم نسميه العالم الثالث يكافح من أجل تقدمه بالخلاص من يرث العالم الآخر العدواني الذي تتزعمه الولايات المتحدة الاميركية ، وعالم ما يسمى معسكر الدول الاشتراكية . فليس بالامكان اذن النظر إلى القانون الدولي والمؤسسات الدولية المعاصرة بمعزل عن الصراع حتى الموت بين هذه العوالم الثلاثة ، دون الخروج عن الموضوعية والغياب عن الواقع في الابراج العاجية : ابراج « الاجتهادات » المجردة التي لا تمنع ابداً عدوان الاقوياء ، وهي في الواقع لا تنطلق إلا من أسس نظامهم ، ولا تهدف إلا إلى حماية قهرهم ، فهي تعارض كل ثورة : إن طرد الصهاينة المغتصبين مثلاً ، طرد الخنز المتهودين المرتزقة واعادتهم إلى بلدهم الاصلي ليعود الفلسطينيون إلى فلسطين التي سلبت منهم بالقوة والقهر ، يخالف القانون الدولي الحالي ، أي قانون الاقوياء ، كما يخالف الحق الباطل على الدوام . . . لذلك كان من الطبيعي أن تتعارض دوماً القوانين الثورية الانسانية مع قوانين العدوان والقهر والتمييز العنصري والاجتماعي من كل الاشكال والالوان : ان الثورة هي نفي القهر وإزالة موانع التقدم الانساني الطبيعي ، انها فيضان هذا التقدم وراء سدود

القهر والعدوان وامتهان انسانية الانسان ، الفيضان الذي يفجر ويقتلع هذه السدود . والثورة الاسلامية هي التي فجرت سدود العبودية وإزالتها من طريق تقدم الانسان إلى الاطوار العليا ، في حدود احترام انسانية البشر وليس على حساب قهرهم وابدانهم كما فعلت الرأسمالية . وعلى هذا الاساس يجب أن ننظر إلى علاقات دار الاسلام بغيرها من مناطق الأرض . فالاسلام عدو لكل أشكال المتألمين على الناس ، جماعات كانوا أم أفراداً ، وصديق للانسان ، وعدو للظلم والتخلف المادي والروحي . والتخلف لا يعني الفقر ، وإنما تخلف النظام الذي يسبب شتى الأمراض التي من جملتها الفقر :

﴿ ولئن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبيغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ﴾

(شورى ٤١ و٤٢)

﴿ فالיום تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون ﴾

(الاحقاف ٢٠)

ولكن الاسلام لم يصادف أية مشكلة في تحقيق هدفه الكبير ، وفي التعايش مع غيره ، وقد تعاهد واحترم العهود ، وقد مر معنا اعلاه الآيات القرآنية التي تحرم الاخلال بها .

يقول الدكتور خدوري في بحثه الأنف الذكر : « . . . فالشرع الاسلامي ، مثله في ذلك مثل أي قانون قديم آخر ، ذو طابع شخصي لا اقليمي ، وهو ملزم للمسلمين أفراداً لا جماعات بغض النظر عن الاقليم الذي يقطنونه . . . ويمكننا القول من ناحية فلسفية ان الاسلام كدين عالمي يشدد على ولاء الفرد للايمان . . . فالتقى والسورع ، وليس العرق أو الطبقة أو التعلق بدار أو بلد هما معيار المواطن الصالح في العقيدة الاسلامية . والاحقاق في تحقيق هذا الهدف الاسمي ، لم يحمل الفقهاء المسلمين على التخلي عن مفهوم النزعة الشخصية في الشرع ، أي طابعه الملزم للأفراد ، لا للجماعات الاقليمية . . . » .

ان الانصياع للقواعد والقوانين والاعراف هو معيار المواطنة الصالحة في كل

الانظمة وفي كل العهود الانسانية المتمدنة ، وذلك بغض النظر عما يكلفه هذا الانصياع من شقاء أو يسيبه من طمأنينة لصاحبه ، وذلك حسب النظام الذي هو فيه وحسب موقعه من هذا النظام . أما إذا أخذنا الصلاح بمعنى حق المواطنة القائم على الاقليمية أو الايمان ، وليس بمعنى الصلاح الاخلاقي ، وهو ما نظن ان الدكتور خدوري ذهب إليه ، فاننا نجد أن الاسلام أوسع انسانية وأرحم بالمسلمين بما لا يقاس ، ليس فقط من السلطات القائمة حالياً في البلاد الاجنبية ، بل من سلطات المسلمين بالذات ، ونخص بالذكر مثال العربي المعاصر الذي لا يستطيع « الترحيح » من قطره إلى قطر عربي آخر إلا عبر صعوبات كبيرة . وكان الاسلام عندما كانت قوانينه سائدة يُمْكِنُ والمسلم أو الذمي من الانتقال بين أقطار الاسلام بدون أية صعوبة ، كما يُمْكِنُ من الإقامة في أي قطر شاء من دار الاسلام ، حتى ولو كانت سلطات هذا القطر غير سلطات قطره الاصيلي . وكان بإمكان الغريب عن دار الاسلام دخول هذه الدار وقضاء حاجاته فيها باسطة امان (كلمة موافقة ، اشارة . .) يعطيه أي مسلم أو مسلمة ، وذلك استناداً وتطبيقاً للحديث النبوي الشريف :

﴿ المسلمون تنكأفا دماؤهم ، ويسعى بذمتهم ادناهم ﴾

وقد ورد هذا الأمر أيضاً في فصل « الاجانب في الأقليم الاسلامي » من كتاب الدكتور خدوري الأنف الذكر .

وقد أوجد الاسلام لأول مرة في التاريخ الانساني الصيغة الواضحة العادلة للعلاقة المتبادلة بين الفرد والجماعة :

- يكفي اشهار الاسلام والكف عن الاخلال بقوانينه (دون الايمان به) ليصبح

الفرد من الجماعة الاسلامية له ما لهم وعليه ما عليهم :

﴿ قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما

يدخل الايمان في قلوبكم وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم

من أعمالكم شيئاً والله غفور رحيم ﴾

(الحجرات ١٤)

وألت بمعنى انقص ، فطاعة الله ورسوله كافية لكي لا ينتقص شيء من

ثواب الاعمال . وعلى العموم تنتهي الطاعة المستمرة بالايمان * * .

** تفسير الجلالين .

- أما المسلم المؤمن فهو العنصر الموجب الفعال في الجماعة الاسلامية ، العنصر

المجاهد :

﴿ انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا
وجاهدوا باموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم
الصادقون ﴾ .

(الحجرات) ١٥

- ويتفاضل المسلمون بعضهم على بعض في الجماعات الاسلامية بقدر تقاهم

ونفعهم للجماعة :

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً
وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم
خبير .

(الحجرات) ١٣

﴿ الناس عيال الله ، أكرمهم عند الله أنفعهم لعياله ﴾

(حديث نبوي)

والخلاصة أن تهذيب الفرد بالاسلام ليس من أجل الفرد فقط وإنما أيضاً
لاعداده ليكون عضواً ايجابياً فعالاً في الجماعة الاسلامية التي يجب بحكم دينها أن
تشكل بافرادها (بنوعيتهم وتكاملهم بتعاطفهم) بنية قوية واحدة :

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾

(التوبة) ٧١

﴿ المؤمنز للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ﴾

(حديث نبوي)

ان رسالة الخليفة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الاشعري في القضاء بين
الناس ، مسلمين وغير مسلمين ، تبين لنا نظرة الاسلام في أحد أهم مجالات رعاية
شؤون الناس وتنظيم علاقاتهم بعضهم ببعض ، وهي :
« بسم الله الرحمن الرحيم .

أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة . فافهم إذا ادلي اليك ، فانه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له . آس بين الناس في مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا يخاف ضعيف من جورك . والبينة على من ادعى واليمين على من أنكرك ، والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا حرم حلالاً أو أحل حراماً . ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه ، فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التهادي في الباطل . الفهم الفهم عندما يتلجلج في صدرك مما لم يبلغك في كتاب الله ولا سنة النبي صلى الله عليه وسلم . اعرف الامثال والاشباه ، وقس الامور عند ذلك ، ثم اعمد إلى احبها إلى الله واشبهها بالحق فيما ترى ، واجعل للمدعي حقاً غائباً أو بيئة أمدأ ينتهي اليه . فان احضر بيئته اخذت له بحقه والا وجهت عليه القضاء ، فان ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ في العذر . المسلمون عدول بعضهم على بعض ، إلا مجلوداً في حد ، أو مجرباً عليه شهادة زور ، أو ظنياً في ولاء أو قرابة ، فان الله قد تولى منكم السرائر ودرأ عنكم الشبهات ثم إياك والقلق والضجر والتأذي بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ويحسن بها الذخر ، فانه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه هتك الله ستره وأبدى فعله ، والسلام عليكم * .

وقد أنكر بعض المستشرقين صحة هذا الكتاب البليغ المعجز بشكله ومضمونه ، وذلك جرياً على العادة عند طلائع الطامعين المستعمرين وعند رواد العدوان الصهيوني * * ، الذين حاربوا امتنا بكل الوسائل التي تأتي في مقدمتها : الانتقاص من حضارتنا بالتهجم عليها من مختلف نواحيها التي من أهمها اسسها وبداياها التي « نفخت فيها روحها وجوهرها . ذلك لان حضارتهم على اتساعها المادي وامكاناتها الفكرية الكبيرة عجزت دوماً عن الحد من وحشية نظامهم ، كما عجزت حضارات العبودية عن منع قهر الانسان . بل ما كانت هاتان الحضارتان لتقومان إلا على أساس استعباد الانسان . إننا نفتش عبثاً عن الروح الانسانية التي

* البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ص ٥٠

** مثل مرغليوت الصهيوني الذي كان مرجع المرحوم طه حسين عندما أنكر الشعر الجاهلي .

تضمنها كتاب عمر الأنف الذكر ، وهي من روح الاسلام ، في أوامر وتوصيات قادة الرأسمالية إلى قادة غزواتهم وفتوحاتهم ، فلا نجد إلا النقيض ، لا نجد إلا نظرات وأنياب الوحوش الضارية ، إلا الصور الرهيبة مثل صور الجنرالات الفرنسيين الذين كانوا يحصرون فلاحي الجزائر ، رجالاً ونساء وأطفالاً ، في الكهوف ، ثم يضرمون النار على أبوابها ومنافذها ويبيدون الألف منهم خنقاً بالدخان أو حرقاً بالنار أو ذبحاً بالرصاص . ثم لاجحة بنا إلى الذهب بعيداً في أمثلتنا ، فاماننا « وصايا ريجن وهيغ » إلى اسرائيل ، باعادة تشريد شعب فلسطين باقتلاع لاجئيه في لبنان واقتلاع عرب لبنان معه ، بعد ذبح رجالهم ونسائهم وأطفالهم بأسلحة الابداء الاميركية . ان الاسلام ثورة انسانية حررت الانسان ، والرأسمالية كالعبودية ، ثورة مادية قهرت الانسان . ولكن أشباه المفكرين ، أولئك الذين ينكرون حقائق الاسلام كما أنكروها اسلافهم أعداء التقدم في صدر الدعوة الاسلامية ، يجهدون أنفسهم بدون طائل ، لان الواقع يدحض كل محاولاتهم السخيفة ، وليسوا بالقلائل الذين يرون الاسلام على حقيقته من أقوامهم بالذات :

﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن .

يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾

(التوبة ٣٢)

إن كتاب عمر إلى أبي موسى الأشعري الأنف الذكر ببلاغته واعجازه يسجم تماماً مع دور عمر في قيادته للعملية التاريخية الهائلة وهي : اتمام ارساء القاعدة المادية والروحانية لعصر عالمي جديد . وهوليس بكثير على انسان بصفات عمر القهيرية ، وهو الذي قضى عشرين عاماً من عمره في مدرسة الدعوة الاسلامية قبل خلافته ، هذه الثورة العظيمة بدروسها وتجاربها الكبيرة ، وبتصادم أفكارها مع أفكار الغير وانتصارها عليها ، بعد ملاحم من الجدل دامت طوال كل تلك السنين ، في وسط اشتهر بنفاذ البصيرة ودقة التعبير . ولكن الذي يدعو إلى التعجب والاسى هو مجارة بعض باحثينا لأولئك المشوهين الاجانب لثرائنا بحجة الموضوعية الزائفة ، وبحجة أن هؤلاء الاجانب « علماء » يعرفون أكثر منا . . . أمورنا ولغتنا وديننا . . . ولكن متى كان العلم علماً عندما يسخر للهوى ؟! . ويقولون أن في روايات سلفنا لتاريخنا بعض المبالغات . . . ولكن هل بإمكان المبالغات أن تعيب حضارة كالحضارة

الاسلامية « فتهدها بالاختفاء » ؟ . . . أو أن تغطي بديهيات كتلك التي تقول بان رجلاً كعمر جدير بكتابه مثل ذلك الكتاب ، وان روح عصره من روح ذلك الكتاب ؟ . . ومع ذلك فقد ثبت كتاب عمر بالتواتر وان اختلف التعبير في مختلف الروايات .

الجهاد ركن اجتماعي :

رأينا في الفقرة السابقة ان العناصر الموجبة الفعالة في الجماعة الاسلامية هم المؤمنون ، وهم بطبيعة الحال يشكلون عصب الجماعة ، وكانوا كثرة في صدر الاسلام ، ومنهم السابقون الاولون جميعاً . وقد عرفهم الاسلام بانهم المجاهدون باموالهم وأنفسهم :

﴿ انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا باموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾

(المحجرات ١٥)

والجهاد ، كما نرى ، يتضمن معنى واسعاً يتعدى ساحات القتال فيشمل كل جهد صادق ومستمر لازالة الفساد في الأرض والكفاح بانواعه ضد الظالمين والمفسدين وضد كل من يقف في طريق الانسان نحو اهدافه السامية . ويمكن القول ان الجهاد في الاسلام مر بثلاث مراحل :

المرحلة الاولى :

إقامة القاعدة للانطلاق في طريق الكفاح من أجل إزالة الطور العبودي العالمي ، وذلك بتوحيد العرب في جزيرتهم بعد إعدادهم بالاسلام للقيام بذلك الدور التاريخي . وقد تمت هذه المرحلة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم .

المرحلة الثانية :

الحفاظ على القاعدة الأنفة الذكر ، والانطلاق منها لاقامة الدار العالمية للاسلام ، وكان هذا في عهد الخلفاء الراشدين والعهد الأموي .

المرحلة الثالثة :

حفظ دار الاسلام والدفاع عنها ضد اعدائها ، وقد امتدت هذه المرحلة طوال العهود الاسلامية التالية ، حيث كان الاسلام في بعضها منتصراً ، وفي بعضها متراجحاً بين النصر والانحسار ، وفي بعضها منحسراً .

ولكن ما هو موقف الاسلام من الجهاد في عصرنا الحالي ؟ فدار الاسلام وقعت فريسة الاعداء الرأسماليين عقب صراع دام قرناً طويلاً . ومما مهد للاعداء انتصاراتهم الاجتياحات الهوجاء لدار الاسلام من قبل البرابرة في الشرق وفي الغرب ، وانقسام المسلمين على الاخص بسبب فساد انظمتهم وانحطاط مجتمعاتهم بتفسيخ علاقاتها الداخلية وانتشار الوثنية ورواج البدع فيها وفساد حكامها وقادة شؤونها المختلفة :

﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾ .

(الاسراء ١٦)

﴿ ذلك إن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ﴾

(الانعام ١٣١)

بمعنى : لانه لم يكن ربك * . . . نقول إذن ما هو موقف الاسلام في عصرنا الحالي من مسألة الجهاد . . . ان امننا الاسلامية (مع الامم الاخرى المتخلفة مادياً) تعاني من قهر الرأسمالية الاحتكارية العالمية التي تنشر شبكتها الرهيبة على عالمها وتمارس النهب فيه والظلم بوقاحة لا مثيل لها في التاريخ . فهل على المسلمين أن يجاهدوا لاعادة بناء دار الاسلام على اساس الحضارة الحرفية التي انقرضت ؟ . . ان اعداء الاسلام هم المستعمرون قاهرو الشعوب وليس التقدم المادي الحالي الذي وضعوا هم بذاتهم اسسه الأولى عندما بنوا حضارتهم وجعلوها حضارة عالمية بالدعوة الاسلامية وبالجهاد من أجلها . ومن جهة ثانية فان المسلم ما دام مسلماً مؤمناً ملزماً بجهاد تتناسب أهدافه مع الظروف التي يواجهها . لانه لا يمكن ان يخضع للعدوان

★ تفسير الجلالين

وفي قلبه ذرة من الايمان ، كما لا يمكن أن يكون تابعاً ذليلاً « مستكناً » تحت الشبكة الرهيبة للرأسمالية الاحتكارية العالمية ، وينفذ أوامر ورغبات الاعداء ويساعدهم في مؤامراتهم على اخوته أو على أي انسان مستضعف مالم يخرج من الاسلام ويصبح عدواً له :

﴿ ولا تنهوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون إن كنتم مؤمنين ﴾

(آل عمران ١٣٩)

﴿ فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ﴾

(محمد ٣٥)

ولن يتركم أعمالكم بمعنى لن ينقصكم .

﴿ إنما يهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾

(المتحة ٩)

وهذه الآية الكريمة الاخيرة تشكل حرفاً بحرف « الاسباب الموجبة » لدستور كفاحنا من أجل وطننا فلسطين ، كجزء من كفاحنا العام ضد النظام الامبريالي العالمي : فقد أخرج شعبنا من وطننا كي تتحول أرضه قاعدة في منطقة النفط محرك وسائل قوى النظام المذكور ، وظاهر الامبرياليون (وفي مقدمتهم أميركا زعيمتهم) على اخراج شعبنا الفلسطيني من أرضه لتسليمها إلى الصهاينة ، وهنالك من يتولى الامبرياليين من العرب بشتى الاساليب والاشكال ، التي تتراوح بين الخيانة السافرة (كما هو حال السادات) وبين السكوت على أعمالهم وعدوانهم وتجاهل صلاتهم وارتباطاتهم العضوية بالصهاينة . ان الاسلام لا يسكت أبداً على قيام ذراعي أميركا : اسرائيل و« قوة الانتشار السريع ، حول أرضنا العربية المحيطة بمنطقة النفط (ثروتنا الاساسية) لتخفق التقدم والحياة فيها ، ولتمتص دماءها ، ثرواتها وقيمها . ان ما تجمعها أميركا من قوى حولنا يجب أن يزيدنا تصميمياً على الثورة على نظامها العالمي الممتد إلى أرضنا ، للخلاص من هذا النظام ، بكل أشكال الكفاح القائمة على الايمان بضرورة هذا الأمر :

﴿ الذين قال لهم الناس ان الناس ان الغاس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾

(آل عمران ١٧٣)

﴿ ولئن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويغيثون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ﴾

(الشورى ٤١ و٤٢)

﴿ وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً ﴾

(النساء ٧٥)

ان العدوان على الأرض العربية هو جزء من العدوان الأكبر على دار الاسلام ومن العدوان الشامل على المستضعفين جميعاً في كل انحاء الأرض . وكم من ملايين الناس الذين يتركون أوطانهم هرباً من الفقر والقهر المسبيين بعلاقات هذا النظام العالمي المشين ليلجأوا أو ليطلبوا لقمة العيش في ظروف لا تختلف كثيراً عن ظروف عبيد القرون الأولى . . وأمر الاتجار بهذا « الرقيق » مشهور في بلاد الاحتكاريين وخاصة منهم أميركا . فنجد إذن ان المعتدي على دار الاسلام هو من كل الأوجه نظام قهر عالمي يشبه شبيهاً شديداً النظام العبودي العالمي الذي جابهه الاسلام وهدمه من اسسه في عهد النبي وعهد خلفائه . ولا يمكن تصور زوال هذا العدوان الا بزوال هذا النظام ، وبالتالي فان جهاد المسلمين المعاصر لا بد من أن يأخذ شكل كفاح الامبريالية بكل اشكالها إلى ان تتحرر دارهم من شبكة الاحتكاريين العالمية . ومن البديهي ان لا يذهب المسلمون إذا كانوا مسلمين حقاً في طريق بناء رأسمالية متقدمة تغدو بالتعريف أما جزءاً من احتكارية المستعمرين ، وبذلك يبقون مقيدين باغلال القهر والعبودية ، وأما رأسمالية تقهر الناس الآخرين (مع قهرها لسواد المسلمين بحسب طبيعتها التي تقوم عليها) وهذا ما يتناقض مع دينهم أيضاً . فلا بد إذن من أن

يساهموا في بناء الطور الأعلى لجملة المجتمعات الانسانية في طريق مساهمتهم في القضاء على الرأسالية في العالم قضاء مبرماً .

ان الجهاد ضد اعداء الانسان إلى ان يكفوا عن عدوانهم ويزالوا كنظام من الوجود ، هو فرض من فرائض الاسلام ، بل هو الاسلام عندما يؤخذ بكل اشكاله . فالنبي وصحابته جاهدوا في مكة بالكفاح من أجل نشر الدين ، وبالصبر على الاذى ، والجوع وترك الديار والهجرة ، واستشهد منهم نفر تحت التعذيب دون أن يتنكروا لدينهم :

﴿ احسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين . أم حسب الذين يعملون السيئات ان يسبقونا سوء ما يحكمون . من كان يرجو لقاء الله فان أجل الله لآت وهو السميع العليم . ومن جاهد فاننا يجاهد لنفسه ان الله لغني عن العالمين ﴾

(التكوير من ٢-٦)

وعندما بلغت الدعوة مرحلة مناسبة للثورة المسلحة ، ومجابهة المنكرين العتاة ، تصاعد شكل الجهاد فأصبح بالنفس والمال وبالصبر على المكاره ومواجهة الاخطار وبفعل كل ما يمكن ان يفعله الشائر وما يمكن أن يتحملة في سبيل انجاح ثورته . فهاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة والأخطار تحيط به وتهدد حياته ، فبلغها رغم انف المشركين المؤتمرين به ، وخاض منها وصحبه وانصاره مع اعداء الاسلام ذلك الصراع المرير الذي دام عشر سنوات . وكان وجه القتال في هذه الفترة غالباً : فعدد الغزوات « التي قادها الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه بلغ سبعاً وعشرين ، وعدد السرايا التي أرسلها بقيادة أصحابه بلغ سبعاً وأربعين ، أي بمعدل سبع وقائع في السنة » * وقد « شغلت آيات الجهاد والقتال حيزاً كبيراً في القرآن الكريم يكاد أن يبلغ نصف المدني » * * . ثم خرج المسلمون إلى العالم لاستكمال الجهاد في إزالة

* الجهاد في سبيل الله للاستاذ محمد عزت دروزة ص ٨ .

* * المرجع السابق .

الطور العبودي العالمي بعد وفاة الرسول والانتهاه من حروب الردة :
﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ﴾

(الصف من ١٠ - ١٣)

﴿ يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل . الا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضره شيئاً والله على كل شيء قدير ﴾

(التوبة ٣٨ و ٣٩)

﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾

(البقرة ٢١٦)

﴿ من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق ﴾

(حديث نبوي)

﴿ رباط يوم في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه ﴾

(حديث نبوي)

﴿ رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل ﴾

(حديث نبوي)

﴿ عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله ، وعين
باتت تحرس في سبيل الله ﴾

(حديث نبوي)

ان يوم الهجرة الذي اتخذته الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مبدأ التاريخ
الهجري ، هو يوم الجهاد بكل أوجهه ، يوم الثورة بكل ابعادها في مختلف ساحات
الكفاح العسكري والفكري والاجتماعي ، لقلب نظام القهر العالمي ، نظام العبودية
بكل أشكالها والعدوان بكل أنواعه في كل العصور .

وللإسلام أركان لا يتم إلا بها من أجل الافراد ، وهي الاركان الخمسة
المعروفة . وللمجتمع الاسلامي أيضاً أركان لا يقوم نظامه إلا بها ، مادام مهتماً
بالعدوان الخارجي أو بالتفسخ الداخلي :

- الجهاد .

- الزكاة .

- كل ما يجمع المسلمين من الفرائض الفردية كصلاة الجمعة والعديد وغيره .
وقد أبرز الخليفة أبو بكر الركنين الأولين دون باقي الاركان الأخرى

بالتاليين :

أولاً - باصراره على تسيير جيش اسامة بن زيد على الرغم من الاخطار التي
كانت تهدد السلطة الاسلامية في المدينة بتفشي الارتداد بين الجماعات العربية .

ثانياً - باصراره على اعتبار مانع الزكاة من المرتدين ووجوب قتاله ، إذ قال لعمر
(الذي رأى في البدء ترك المرتدين وشأنهم ما داموا يشهدون بان لا إله إلا الله وان
محمداً رسول الله) : « والله لا قاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق
المال . والله لو منعوني عناقاً (وفي قيل عقال بعير : من عندنا) كانوا يؤدونها إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليها أو يؤدونها » .

ان الصديق بافعاله السابقة أكد مفهوماً جوهرياً في الاسلام هو تكامل فرائض
وواجبات الجماعة والافراد ، التكامل الذي لا يقوم الاسلام بدونه ككيان يؤدي دوره
الانساني . وبعبارة ثانية : ان التعبد لله الواحد هو لصالح الفرد لا من أجل نفسه
فقط وإنما أيضاً من أجل الجماعة الاسلامية التي تصلح الجماعة الانسانية أيضاً
بصلاحها وقدرتها على حماية الصلاح ومنع القهر بكل أنواعه الجماعية والفردية . فالله

غني عن عبادات الناس ، والصلاح من أجلهم ، ولا تقوم جماعاتهم الا به ، كما لا يقوم الفرد إلا في الجماعة :

﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد ﴾

(فاطر)

﴿ الذين ييخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فان الله هو الغني الحميد . لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾

(الحديد ٢٤ و ٢٥)

﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بالمواهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون . قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض والله بكل شيء عليم . يمنون عليك إن اسلموا قل لا تمنوا علي اسلمكم بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان إن كنتم صادقين ﴾

(الحجرات من ١٥ - ١٧)

وخلاصة القول : ان هدف الاسلام ليس في دفع الناس إلى « التزاحم » على أبواب الجنة : بالانشغال عن الجماعة بتكريس الحياة للتعبد الفردي فقط ، وقد قيل ان « لارهبانية في الاسلام » أي لا عزلة عن الجماعة . فلا بد إذن للفرد من أن يرد للجماعة ما يأخذ منها وان يحميها كما تحميه ، ولا بد للجماعة من أن ترد للانسانية دِينَهَا وان تجاهد لازالة الفساد في الأرض قبل وصول أذاه إليها ، أو بعده على الأقل . والمسلمون جميعاً في عصرنا الحالي تحت القهر الامبريالي ، فلا بد من أن يتولوا بعضهم بعضاً ويجاهدوا لازالة النظام الذي يقهرهم ويقهر غيرهم من بني الانسان ، إلى أن يزول هذا النظام ، وذلك بمختلف اشكال الجهاد الصادق ، ولا يخفف من مسؤوليتهم تعبدهم الفردي :

﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ألا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ﴾

(الانفال ٧٣)

ويقول تفسير الجلالين بخصوص هذه الآية : (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) في النصرة . . . (ألا تفعلوه) أي تولي المسلمين وقمع الكفار (تكن فتنة في الأرض وفساد كبير) بقوة الكفر وضعف الاسلام .

وقد اقترنت الزكاة بالصلاة في معظم الآيات القرآنية التي أتت بها . وبديهي أن يكون تنظيم ركني المجتمع : الجهاد والزكاة ، من شأن السلطات العليا في كل جماعة اسلامية * ، كما رأينا في مثال الخليفة أبو بكر رضي الله عنه . وعند تحاذل هذه السلطات وخنوعها للعدو (كخضوع معظم الانظمة الاسلامية في عصرنا الحالي للنظام الامبريالي العالمي وسكوتها على فظائعه ، لاسيما منها تشريده لأهل الأرض المقدسة ، واغتصابه لهذه الأرض ليجعل منها قاعدة تساعد في تشديد عدوانه عليهم ، وهي التي جبلت تربتها بدماء الاجداد خلال حروب صليبية طاحنة دامت قرناً ولما تنقطع) نقول عند تحاذل السلطات الاسلامية وخنوعها للعدو فان فريضة الجهاد تصبح فريضة عين على كل مسلم ، فيدفع من دمه وحرته وماله وأرضه وكرامته وصفاء عيشه ثمناً لا يتعادها عنه ولسكوته على العدوان وخنوعه للقهر . وهكذا يدوم الحال إلى أن تقوم دعوة الثورة ويستجيب لها سواد الناس ، وعندئذ فان المعترض عليها ، أو المتخاذل ، أو المتقاعس (ناهيك عن الخائن المتعاون مع العدو الذي يكون حكمه حكم خارج على الاسلام وعدوله) يرتكب كبيرة الكبائر بمخالفته للجماعة وتخلفه عن مسيرتها ، وذلك بدلالة الآيتين ٣٨ و ٣٩ من سورة التوبة اللتين استشهدنا بهما أعلاه .

الجهاد رد على الفساد والطغيان :

يقول اعداء الاسلام ان هذا الدين قد انتشر « بالسيف » ، وذلك لانه فرض القتال على اتباعه . فالدين عندهم ليس ثورة على عهود الوحشية والتخلف ، وإنما استكانة وخضوع للظلام إلى مالا نهاية ، وليس ثورة على كل الفساد الذي تردد

* هنالك شؤون مالية أخرى كخمس الغنائم والفيء والخراج والجزية وغيره تجمعهما شؤون بيت مال المسلمين هي أيضاً من أول وظائف السلطات القائدة في المجتمع الاسلامي ولا يقوم الجهاد ويصلح هذا المجتمع إلا بتنظيمها وتنقيتها من الفساد .

طويلاً على بني الانسان بدوام تردد المفسدين من كل شكل ولون على هذه الدنيا . وقد سبق أن أشرنا إلى أن عدو الاسلام هو نظام القهر ، أي نظام يقهر الانسان ويسبب له التعاسة والتخلف وليس الانسان . ومثل هذا النظام العدواني له أصحاب يمتلكون كل وسائل القمع اللازمة لتثبيته . فلا بد إذن للدعوة الهادفة إلى إزالته من أن تأخذ مجراها الطبيعي المجرب طوال العهود الانسانية وهو : تصاعدها من بداياتها القائمة على الموعظة والصبر على الأذى والدأب على تنظيمها وكسب المؤمنين إليها فرداً فرداً ، إلى أن يأخذ فيها الجهاد كل أبعاده الضرورية في مختلف ساحات الكفاح التي من جملتها العنف أو الكفاح المسلح . هذا هو قانون الثورة العام ، وهو يربز بكل ابعاده وتفصيله عندما تهدف الدعوة إلى تغيير النظام العالمي كذلك النظام العبودي الذي أزالته الدعوة الاسلامية مثلاً . والعنف الثوري في جوهره عنف دفاعي ضد العدوان المستمر الذي يمثله قهر النظام . ان النظام الامبريالي العالمي المتعدد الأطراف الموحد بزعامة الولايات المتحدة الاميركية مثلاً هو نظام عدواني ينزل بثقله الرهيب على عاتق المستضعفين من بني الانسان ، وخاصة على عاتق انسان العالم الثالث الذي تقوم فيه دار الاسلام . والذين يستجيبون للموعظة الحسنة في بدايات كل دعوة لمقاومته هم بطبيعة الحال من بين شرقاء الناس والمستضعفين فيه ، أما الامبرياليون مصاصو الدماء ، فليس ثمة « لغة » تتمكن من اقناعهم بالكف عن « قهر الانسان » سوى « لغة الكفاح » بكل أشكاله التي من جملتها الكفاح المسلح في ظروفه الملائمة :

﴿ . . فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم . . ﴾

(التوبة ١٢)

ان الكفاح أو الجهاد هو من أجل الانسان ، من أجل إزالة فساد من الأرض يتناول أذاه ، معظم الناس ، فتكون دعوة القائمين به إذن ، بعد ادراك وفهم اهدافها ، والوثوق من صدقها ، معبرة عن طموحات تلك الأثرية الساحقة من البشر التي لن تتأخر عندئذ عن تلبيتها ، والانتظام في صفوفها ، والسير تحت أعلامها . ولن يكون ذلك عندئذ بسبب الخوف من « السيف » المشهر في وجه العدوانيين ، وانما بسبب ما حطمه هذا السيف من اغلال ، وحرر بالتالي الناس من

خوف اختيار الطريق الصحيح . وهذا ما كان عليه حال الدعوة الاسلامية التي انتشرت في العالم انتشار النار في الهشيم :

« كان من المتعذر على العرب أن يحرزوا الانتصارات وان ينشروا الاسلام على مساحات شاسعة من العالم لو كان يصطدم بمقاومة الجاهير . وكانت الجاهير الكادحة والناس البسطاء في الفرس والامبراطورية البيزنطية ينظرون إلى العرب كمن يحمل إليهم أفضل العقائد عن نظم الحياة . وقد استقبلت هذه الشعوب العرب بوصفهم المنقذين من الظلم والاضطهاد والجهل والفقر * . وكيف لا وإن الاسلام كان ينشر في الآفاق بالرفق والموعظة الحسنة والله تعالى يقول : « لا إكراه في الدين » . ورسوله يوصي اصحابه عند فتح مكة « ان يرفقوا باهلها الذين آذوه واخرجوه ويقول : « من دخل بيت الله فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن » . وبما له دلالة بليغة بهذا الصدد هو اعتناق دولة البولغار على اطراف الفولجا - أراضي جمهوريتي تتاريا وبشكيريا ذات الحكم الذاتي حالياً - للدين الاسلامي . كان ذلك في عهد الخليفة المقتدر بالله (٩٠٨ - ٩٣٢ م) . فقد أرسل ملك البولغار صلطيغار بن شيكلكي بعثته إلى الخليفة ، وقد رجا - حسب ما رواه ابن فضلان - الخليفة ان يرسل اليه من يلقنه الدين الاسلامي ويعلمه قوانينه . . . وفي عام (٩٢١ م) قدمت بعثة الخليفة إلى بلاد البولغار وكان على رأسها سوسان الراسبي ، بعد ان قطعت مسافات طويلة ، واستقبلت بحفاوة بالغة على امتداد مسيرة ليل ونهار من قصر الملك . وفي يوم الخميس في شهر أيار عام ٩٢٢ جرت مراسم اعتناق الاسلام في أكبر حشد جماهيري . وأقيمت أولى الشعائر الدينية في اليوم التالي ، واعلن الامام عن قرار ملك البولغار بتغيير اسمه باسم اسلامي جديد هو جعفر بن عبد الله . ويحتفل المسلمون في هذه الاصقاع كل عام بتاريخ اعتناق الاسلام في بلادهم . وعلى سبيل المثال قال خطيب جامع قازان عبد الكريم بارولين في الخطبة المكرسة لهذا اليوم الاغر : « ابتداء من اليوم السادس عشر من شهر محرم عام ٣١٠ هجري سا عد اعتناق جعفر وجماعته الدين الاسلامي على انتشار الاسلام وتقويته بين البولغار . ولم يمض ٥٠ - ٦٠ عاماً على ذلك التاريخ حتى اعتنق جميع البولغار

* انظر فيما سبق من البحث تعليق الدهاقنة وجنودهم على كلام المغيرة بن شعبه لقائدهم في القادسية رستم .

الاسلام ، وظهر آنذاك بتأثيرهم ، الاسلام بين الشعوب المجاورة : عند التسوفاشيين والماريين والبشكير . وفي ذلك القرن بالذات انتقلت مجموعة من الشعوب المجاورة إلى الاسلام أيضاً . . . وحسب شهادة كثير من مؤرخي القرون الوسطى ، التي أكدتها البحوث الحديثة ، فان العديد من شعوب القفقاس آمنت بالدين الاسلامي طوعاً ، كالداغستانيين والشعوب التركية الأخرى . ويؤكد الاكاديمي بارتولد ، مثلاً ، بان الشعوب التركية لم تكن استثناء من هذه القاعدة ، وذلك لاننا نشهد في القرن العاشر أمثلة لاعتناق شعوب بكاملها للاسلام دون اخضاعها بالفتح الاسلامي . وجاء في كتاب « مجموعة قوانين تيمور » ما يلي : لقد جاهدت لنشر دين الله وقوانين محمد عليه السلام ، الذي اصطفاه الله ، وخدمت الاسلام اينما كنت . وقد جدد الاسلام كل حياة الشعوب التي اعتنقته ، فساعدها على ان تسهم بقسط كبير في تطوير الحضارة العالمية . فقامت في دار الاسلام أروع واغنى الآداب العربية التي شملت العلوم القرآنية وعلم الفقه الاسلامي ، وعلم القوانين وجميع فروع العلوم الطبيعية والانسانية لذلك العصر : الرياضيات والفلك والطب والجغرافيا والفلسفة والتاريخ والمنطق * .

ان الشعب العربي الذي قام بهذا الدور العظيم في حياة الشعوب واشعل فيها الحركة العقلية الكبيرة لم يكن شعباً متخلفاً . « نحن نرتكب خطيئة فاحشة حين نتصور عرب ما قبل الاسلام بدوا فقراء نصف برابرة لا يفتنون الا بالالبان . فقد كانت كثرتهم الغالبة تسكن مدناً غنية في اليمن على الاقل ان لم يكن في الحجاز . وكانوا على اتصال دائم منذ قرون طويلة ، وبصورة متتابعة ، بالمصريين فالاشوريين واليونان والفرس والهنود . اغتنتهم تجارة العربية السعيدة بالبن والبخور ومنتجات الهند التي استقلوا بها منذ انهيال الامبراطورية اليونانية الرومية . وكانت لغتهم هي الفصحى التي استعملها عدد كبير من الشعراء المجددين ، كما رأينا اذينة - احد امرائهم - يحمل لقب امبراطور روماني . **»

* الاسلام والمسلمون في البلاد السوفياتية بقلم المفتي ضياء الدين خان بن ايشان باباخان .

ص ١٥ - ١٩

** المعجزة العربية لماكس فانتاجو ترجمة رمضان لاوند ص ٣٥

كانت « المعجزة الاسلامية » تنتشر من الشرق الى الغرب بحيوية شابة ،
وتحرز نصرا بعد نصر في البلاد ، وتوسع مداها وتوثق اطرافها بما حملته من تحرر
فكري ونظرية اخلاقية سياسية واضحة اساسها العدل واحترام الشعوب .

لقد كتب الباحث الاجتماعي والمؤرخ الانجليزي الشهير هربرت ويلز*
يقول : « لقد توجه الدين الاسلامي الى جماهير الناس التي نزل عليها فبشرها بان
الله هو اله العدل . وكان تبني تعاليم النبي محمد ومنهجه قد فتح الباب على مصراعيه
امام روح الاخوة والثقة بين الناس على وجه البسيطة في ذلك العالم المليء بالشكوك
والخيانة والعوائق المستعصية . لقد فتح تبني تعاليم محمد ومنهجه كذلك ابواب
الجنة ، ولكنها ليست جنة العبادة والصلاة بلا انقطاع التي يشغل فيها رجال الدين
والكهنوت والملوك المعمدون مواقعهم الرفيعة كالسابق ، بل هي جنة الاخوة الحققة
والملاذات البسيطة المفهومة التي تتعطش اليها الروح . لقد غرس محمد هذه الحقائق
الرائعة في افئدة البشرية بدون اية رموز مربية وبدون محاريب معتمة ولا ابتهالات
يتلوها القساوسة . . لقد انتصر الاسلام لانه كان افضل نظام اجتماعي وسياسي ظهر
في ذلك العصر . ولقد شاع لانه وجد حيثما حل اناسا لا اباييين من الناحية
السياسية ، اناسا مضللين مضطهدين مرتعنين ، اناسا جهلة غير منظمين ، ووجد
حكاما حمقى فارغين لا تربطهم بالشعب اية رابطة . لقد كانت افكار الاسلام هي
الافكار الاكثر شمولاً وجدة ونقاوة من الناحية السياسية في العالم آنذاك . وقدم
الاسلام للجماهير البشرية ظروفا افضل من اية ديانة اخرى » .

ان هربرت ويلز (١٨٦٦ - ١٩٤٦) عاش اكثر من الثلث الاول من عمره في
العصر الفيكتوري حيث كانت برجوازية امته بقيادة احتكارياتها الناشئة تملأ العالم
حينذاك قهرا وفسادا ، وحيث كانت الحركة الصهيونية تنشط نشاطا كثيفا في اوربا
كلها ، وخاصة منها انجلترا ، كوجه من اوجه القرصنة الرأسمالية الاحتكارية
الصاعدة . وكان ويلز لمدة قصيرة اشتراكيا فابيانيا ، ثم ترك هذه الحركة ليكون لنفسه
آراء اشتراكية مستقلة عبر عنها في كتابين له . « عالم جديد بدلا من القديم »

* الاسلام والمسلمون في البلاد السوفياتية بقلم ضياء الدين خان بن ايشان باباخان

ص ١٤١٣ و١٤

مؤمنا : وقد انطلق عنان الفضول والحماس ليمزق نقاب القدسيات : فكانت كل طائفة شرقية لاتألو جهدا بوصم جميع الطوائف ، ماعداها ، بانها آثمة بالوثنية والشرك لقد كان مذهب محمد منزها عن الريبة والغموض ، والقرآن شهادة مجيدة على وحدانية الله - ولقد رفض نبي مكة عبادة الاوثان والرجال ، والنجوم والكواكب ، معتمدا على مبدأ عقلائي ، بان كل مايشرق يغيب ، وكل مايجيا يموت ، وكل ما هو فاسد مصيره التآكل والفناء . ان منظم الكون في حماسه العقلاني آمن بكائن ابدى غير محدود ، بدون شكل ولا مكان ، بدون ولد ولا شبيه ، حاضر في اعماق اسرارنا ، موجود بضرورة طبيعته ، ومستمد من نفسه جميع الكمال الذهني والاخلاقي . ان هذه الحقائق الرائعة ، التي اعلنت بلسان النبي ، قد اعتنقها اتباعه ، وحددها شارحو القرآن بدقة ميتافيزيقية . ان فيلسوفا مؤمنا بالله يمكنه ان يتبع المذهب الجماهيري لمحمد ، وهو مذهب قد يكون ارفع من مؤهلاتنا الحاضرة . ولكن ماذا يبقى للخيال ، اوللفهم ، اذا جردنا الجوهر المجهول من كل افكار الزمان والمكان ، والحركة والمادة ، والشعور والانعكاس . ان المبدأ الاول للعقل والوحي قد عززه صوت محمد : فاتباعه ، من الهند الى مراكش ، قد تميزوا باسم « الموحدين » ، وتحريم التماثيل قد منع خطر الوثنية . فالمحمديون يعتقدون مذهبا ذا احكام ابدية وقدر محتوم ويناضلون لحل العضلات الشائعة مثل : كيف يوفقون بين علم الاله للغيب وبين حرية ومسؤولية الانسان ، وكيف يفسرون تسويغ الشر تحت حكم قدرة لا نهائية وخير غير محدود . . . انتهى قول جيبون .

والخلاصة ، ان التحدث عن الدعوة الاسلامية هو التحدث عن ثورة انسانية كبرى دفعت جملة المجتمعات الانسانية من طور فاسد متفسخ الى طور اعلى هو طور الانسان المنتج الحر ، والتاجر الشريف ، والاسواق العالمية الجارية والمتصلة بعضها ببعض بدون عوائق العبودية المتخلفة وسدودها :

﴿ مااكل احد طعاما قط خيرا من ان يأكل من عمل يده ﴾

(حديث نبوي)

﴿ البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فان صدقا وبينا بورك لهما بيعهما ﴾

وان كتبا وكذبا محقت بركة بيعهما ﴾

(حديث نبوي)

« الامور الاولى والاخيرة » . اما اختصاصه الاساسي فهو العلوم الطبيعية ، وكان يتبنى نظرية النشوء والارتقاء ، وتتلذذ فيها على العالم توماس هكسلي ، وله فيها ابحاث* .

ولنعد الى موضوعنا الاصلي ، ولنأت بشهادة اخرى من عالم آخر هو جواهر لال نهرو الذي نقرأ في كتاب له الفه عندما كان في سجون المستعمرين وعنوانه : « نظرات حول تاريخ العالم » ، الفقرة التالية : « ان الديانة التي بشرها محمد وبساطتها واستقامتها ، والديموقراطية والمساواة اللتين اعلنتها هذه الديانة كل ذلك حظي بصدى واسع لدى شعوب البلدان المجاورة . وقد عانت هذه البلدان لامتد طويل من نير الحكام الملوك الطغاة ومن نير الكهان والقساوسة الذين لم يكونوا اقل طغيانا وتعسفا من الملوك (في الواقع كان هؤلاء الكهان والقساوسة واولئك الملوك والحكام يمارسون على الناس قهر الطور العبودي العالمي الذي ازاله الاسلام بجهاده واقام في الجملة الانسانية طور « الحرة والحرارة العالمية النشطة » : من عندنا) . لقد تعبت الشعوب من النظام القديم ونضجت لتقبل الجديد . وقدم لها الاسلام هذا الجديد . وكان ذلك الجديد امرا مرغوبا لانه حمل اليها الافضل من نواح عديدة ، ووضع حدا للكثير من الشرور الناجمة عن النظام القديم »* . ويقول جيون ، وهو مؤرخ شهير ، في وصف وحدانية الاسلام الكلمة التالية : «* كان مسيحيو القرن السابع قد ارتكسوا دون وعي الى ما يشبه الوثنية ، وكانت نذرهم العامة والفردية تقدم الى التماثيل والمخلفات الاثرية التي كانت تشين معابد الشرق : لقد اظلم عرش الاله بغيوم الشهداء ، والقديسين ، والملائكة ، وكل ما هو موضع اجلال الجماهير ، ولقد ازدهرت فئة من الضالين في التربة الخصبة للجزيرة العربية واستثمرت العذراء مريم واضفت عليها لقب واجلال آلهة . وكانت الاسرار المحيطة بالثالوث الاقدس والتجسيد تبدو بانها تتناقض ومبدأ الوحدة الالهية . فهم قد ادخلوا ثلاثة آلهة متساوية وحول الانسان المسيح الى ابن آله : وكانت تفسيرات الاورثوذكس لاترضي الاعقلا

* انظر هربرت جورج ويلز في الموسوعة بريتانىكا ص ٥٠٣ من المجلد ٣٣ نسخة ١٩٦٥

* كتاب الاسلام والمسلمون في البلاد السوفياتية ص ١٤ و ١٥

* جيون المجلد ٤١ من مجموعة الكتب العظيمة للغرب ص ٢٢٩ و ٢٣٠

والبيع (بتشديد الياء وكسرهما) بمعنى البائع او الشاري . ولكن الاسلام اذ انجز ذلك الدور التاريخي العالمي لايقف عند هذا الانجاز ، لانه دين يقوم على الصلاح والعداء للقهر والفساد في الارض ، وليس قواعد لمهمة محددة ينجزها جيل او عدد محدد من الاجيال الانسانية ثم ينتهي عندها . ومن جهة اخرى نجد ان الطغيان والفساد عادا الى الارض واستفحلا بتفسخ طور الجملة الانسانية الذي دفع اليه الاسلام ، وبقيام طور الرأسمالية الذي بلغ فيه القهر حدا لم يشاهد له مثيل في اشد اطوار الجملة الانسانية السالفة تخلفا وسوادا . فلا بد اذن من ان يكون الاسلام عدوا لكل عهود الفساد والقهر التي اعقبت اقامة دار الاسلام على اسس التقدم والتراحم بين الناس ، ان يكون الاسلام على الاخص عدوا للعهد الحالي ، عهد الامبريالية العالمية المتعددة الاطراف والموحدة بقيادة الولايات المتحدة الاميركية . وبالتالي يكون الجهاد ضد هذا النظام العالمي فرضا على المسلمين ، لايعفيهم منه قيامهم بفرائضهم وواجباتهم وسننهم الفردية ، وذلك بهدف دفع الجملة الانسانية الى الطور الاعلى بعد القضاء على قهر هذا النظام العالمي الفاسد والمفسد . فالاسلام يتميز اذن من الثورات الانسانية بانه دين مستمر ابدا في جوهره يفرض على المنتسب اليه في كل جيل من اجياله المتتابعة الصلاح مع الجهاد بكل انواعه المناسبة لظروفه القائمة والتضحية بالمال وبالنفوس من اجل اعلاء كلمة الحق . فهو الدافع القوي لسلسلة لاتنقطع من الثورات الكبرى مادام تقدم الانسان لاينقطع وما دام فساد جملة المجتمعات الانسانية يتردد من طور الى طور فيها . لكنه عدو بالبداية لجرائم الرأسمالية التي ارتكبتها ضد الانسان في زمان صعودها وتأسيس طورها ، كما انه يحرم الموقف السلبي الذي وقفه مسلمو الزمان المذكور من التقدم المادي ، مما سبب نكبتهم بالتخلف والضعف ووقوعهم في النهاية في عبودية الرأسمالية .